

اليها ، فأخرج اليه ابن المقدم عسكريا فنهبوه فعاد منهزما الى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين بن الداية مأخذ وجهزه وسيره الى دمشق - وعلى نفسها تجني براقش - فلما وصلها سعد الدين دخلها ، واجتمع بالملك الصالح والأمراء وأعلمهم ما في مسير الملك الصالح الى حلب من المصالح ، فأجابوا الى تسييره فسار اليها ، فلما وصلها وصعد الى قلعتها ، قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وأخوته ، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب والذي يتبعه من أحداثها ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ، ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء (وكان أمر الله قدرا مقدورا) (١٢٣)

واستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح ، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق فلم يفعل ، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ، ويقصده ابن عمه من وراء ظهره ولا يمكنه الثبات ، فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ما أخذه بيده ، وبقي الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبر أمره ، وتمكن منه تمكنا عظيما يكاد يقارب الحجر عليه .

في ذكر وصول صلاح الدين يوسف بن ايوب

الى دمشق دار العشق وتملكها من يد ولد مولاه

لما خاف من بدمشق من الأمراء أن يقصدهم سعد الدين والملك الصالح فيعاملهم بما عامل به بني الداية ، راسلوا سيف الدين ليسلموها إليه فلم يجبهم ، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن ايوب بمصر ، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين محمد بن المقدم - ومن اشبه أباه فما ظلم - (١٢٤) فلما أتته الرسل بذلك لم يتوقف ، وبادر إلى الاجابة وسار إلى الشام ، فلما

وصل دمشق ، سالمها إليه من بها من الأمراء ودخلها واستقر بها ، ولم يقطع خطبة الملك الصالح وإنما أظهر : أني إنما جئت لأخدم مولاي وابن مولاي ، واسترد له بلاده التي أخذها ابن عمه ، وجرت أمور قد شوهدت فلا حاجة إلى ذكرها ، كما قال بعضهم :

فكان ماكان مما قد سمعت به
فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وفي آخر الأمر اصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح كل منهم على ما بيده بعد حروب ومخامرات ، فقد أتينا على ذكر ذلك في المستقصى في التاريخ .

ذكره ولاية مجاهد الدين قلعة الموصل ووزارة جلال الدين أبي الحسن علي

وفي ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعين وخمسائة ، استوزر أتابك سيف الدين ، جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين رحمهما الله تعالى ، ومكنه في ولايته ، وفوض إليه أمور دولته ، فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس ، وبدا منه معرفة بقواعد الدول ، وأوضاع الدواوين ، وتقرير الأمور وإطلاع على دقائق الحسابات ، وعلم بصناعة الكتابة الحسابية حيرت العقول ، ووضع للناس في كتابة الانشاء وضعاً لم يعرفوه ، وشرع لهم منها شرعاً استحسنوه ، وبذل بذلاً استعظموه ، وكان عمره حين ولي الوزارة خمسا وعشرين سنة ، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين وخمسائة ، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمد - وكان قد زوجه ابنته - فأطلق من الحبس وسار إليه فبقى بآمد يسيرا مريضا ، ثم فارقه وتوفي بدنيسر سنة أربع

- ٦٥٧٤ -

وسبعين وخمسائة وحمل إلى الموصل ودفن بها ، ثم حمل منها في موسم الحج إلى المدينة فدفن عند والده ، وكان أحسن الناس صورة ومعنى ، رضي الله عنه .

ثم ان سيف الدين استتاب دزار بقلعة الموصل ، الأمير مجاهد الدين قايماز في ذي الحجة سنة احدى وسبعين وخمسائة ، ورد اليه أزمة الأمور في الحل والعقد ، والرفع والخفض ، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها ، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين علي ولقبه أيضا زين الدين ، وكان البلد لولد زين الدين اسما لامعنى تحته ، ولجاهد الدين صورة ومعنى .

وفي سنة اثنتين وسبعين ، شرع مجاهد الدين في عمارة جامع بظاهر الموصل بباب الجسر ، وهو من أحسن الجوامع ، ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان وكلها متجاورة .

ذكر عصيان ابن بوزان وعوده الى الطاعة

ثم ان الأمير شهاب الدين محمد بن بوزان صاحب شهرزور - وهو في طاعة سيف الدين - أظهر التجني على سيف الدين سنة اثنتين وسبعين وخمسائة ، وجعل عذره في ترك الحضور في الخدمة بنفسه ، الخوف من مجاهد الدين لعداوة بينهما محكمة القواعد ، وقال : إن مجاهد الدين هو الآن مدبر الدولة والحاكم فيها ، ولا أمنه على نفسي ، فأرسل إليه جلال الدين الوزير رسولا عن نفسه وكتب إليه كتابا ليس مثله في معناه ، فلما وصل الرسول والكتاب إلى شهاب الدين بادر إلى الحضور في الخدمة السيفية .

ذكر القبض على سعد الدين كمشتكين الدوري

قد ذكرنا حال سعد الدين كمشتكين وأنه استولى على دولة الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين ، وحكم عليها ، فلما كان سنة ثلاث وسبعين ، قبض عليه الملك الصالح وطلب منه أن يسلم اليه قلعة حارم - وكانت اقطاعه - فلم يفعل ، فأرسل الملك الصالح إلى مسد تحفظها يأمره بتسليمها إلى نائبه فلم يسلمها ، فسار الملك الصالح إليها من حلب ومعه سعد الدين فحصر القلعة ، وعاقب سعد الدين ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب إلى ماطلب منه ، فعلق مذكوسا ودخن تحت أنفه فمات ، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها ، ثم إنه أخذها بعد ذلك .

ذكر الغلاء والوباء

وفي سنة أربع وسبعين وخمس مائة ، أشدت الغلاء وعم أكثر البلاد : العراق والموصل وديار الجزيرة وديار بكر والشام وغير ذلك من البلاد ودام إلى أن انقضى أكثر سنة خمس وسبعين وخرج الناس في سائر البلاد يستسقون فلم يسقوا ، ثم إن الله تعالى رحم عباده ولطف بهم وأنزل عليهم الغيث ، وأرخص الأسعار ، ومن عجب ما رأيت تلك السنة أنني كنت في الجزيرة ، وقد قصدت مدرسة بها أسمع على مدرستها شيئاً من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما أنا جالس عند فقيه في بيته أنتظر مدرستها ، وإذا قد أقبل انسان تركماني قد أثر عليه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر ، فبكي وشكا الجوع ، فأرسلت من اشتري له خبزاً فتأخر احضاره لعدمه ، وهو يبكي ويتمرغ على الأرض فتغيمت السماء وجاءت تذقت المطر متفرقة ، وضج الناس ، ثم جاء فأكل ذلك التركماني وأخذ الباقي معه ومشى ، واشتد المطر ، ودام من تلك

الساعة ، فرخصت الأسعار ، ووجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة ، ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير ، وكان مرض الناس شيئاً واحداً ، وهو برسام (١٢٥) فمات فيه من كل بلد أمم لا يحصون كثرة ، ولقي الناس منه ما أعجزهم حمله ، ثم إن الله تعالى رفعه عنهم في سنة ست وسبعين وخمسمائة وقد ضعفت العالم .

فصل في ذكر وفاة أمير المؤمنين

المستضيء بأمر الله الخليفة العباسي

في سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، توفي الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله ، وقد تقدم باقي نسبه ، وأمه أم ولد : (ارمنية تدعى غضة) وكانت خلافته (نحو تسع سنين وسبعة أشهر) (١٢٦) .

ذكر شيء من سيرته قدس الله روحه

وكان عادلاً حسن السيرة ، كثير البذل للمال ، غير مستقص في أخذ ما جرت العادة بأخذه ، وكان الناس معه في أمن وسكون لم يروا مثله ، وكان رحمة الله عليه كريم الأخلاق ، كثير العفو ولا يرى المعاقبة بل يعفو ويصفح ، وزر له عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء إلى أن قتل أوائل ذي القعدة من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان قد سار إلى الحج - وكنت حينئذ ببغداد عازماً على الحج - فعبر عضد الدين دجلة في شبارة ، فلما ركب دابته والناس معه ما بين راكب وراجل ، فتقدم إليه بعض العامة ليدعوه له ، فمنعه أصحابه فزجرهم وأمرهم أن لا يمتنعوا عنه أحد ، فتقدم

إليه الباطنية فقتلوه بالجانب الغربي ، وقتل الباطنية وأحرقوا ، وحمل من موضعه إلى دار له بقطفاً بالجانب الغربي ، فتوفي بها رحمة الله تعالى ، وتولى الأمور بعده ظهير الدين بن العطار وحكم في الدولة حكماً نافذاً .

ذكر وفاة الملك سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر

في صفر من سنة ست وسبعين وخمسائة ، توفي الملك سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكي رضي الله عنهم ، وكان مرضه السل فطال به ، ومن العجائب أن الناس لما خرجوا يستسقون بالموصل سنة خمس وسبعين وخمسائة للغلاء الحادث في البلاد ، خرج سيف الدين في موكبه فثار الناس وقصدوه مستغيثين به ، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر فأجابهم إلى ذلك ، فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين ، وخرّبوا أبوابها ودخلوها ونهبوها وأراقوا الخمر ، وكسروا الأواني وعملوا مالا يحد ، فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان وخصوا بالشكوى رجلاً من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ، ولم يكن له في الذي فعله الناس من النهب فعل ، إنما هو أراق الخمر ، ولما رأى فعل العامة نهأهم عنه فلم يسامعوا منه ، فلما شكوا الخمارون منه ، أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته ، فلما أطلق لينزل من القلعة ، نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل ، وقال : والله حتى ينتقم الله لي ممن ظلمني فلم يمض غير قليل حتى توفي الذردار المباشر لأناه له ، ثم بعقبه مرض سيف الدين ودام مرضه إلى أن توفي ، وكان عمره نحو ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً .

ذكر صفة سيف الدين وذكر شيء من سيرته

كان رحمه الله من أحسن الناس صورة ، تام القامة ، مليح الشمائل ، أبيض اللون ، مستدير الحية ، متوسط البدن بين السمين والدقيق ، وكان عاقلاً ، وقوراً ، قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس ، عفيفاً ، لم يذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العفة ، وكان غيوراً شديد الغيرة ، لم يترك أحداً من الخدام يدخل دور نسائه إذا كبر ، إنما يدخل عليهن الخدم الصغار ، وكان لا يحب سفك الدماء ، ولا أخذ الأموال مع شح فيه .

في ذكر مملكة المولى السعيد

عز الدين بن قطب الدين مودود

لما اشتد المرض بسيف الدين ، أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه فخاف من ذلك ، لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقويت شوكته ، وامتنع أخوه المولى السعيد عز الدين من الازعان والاجابة إلى ذلك ، فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايماز ، بأن يجعل الملك بعده في أخيه ، لما هو عليه من كبر السن أولاً والشجاعة والعقل وقوة النفس وحسن سياسة الملك ، وأن يعطي ابنه بعض البلاد ، ويكون مرجعهما إلى المولى عز الدين والمتولي أمرهما مجاهد الدين ففعل ذلك ، وحلف الناس لأخيه . فلما توفي سيف الدين ، كان مجاهد الدين هو المنبر للدولة والنائب فيها ، والمرجع إلى قوله ورأيه ، فركب إلى الخدمة العزمية وعزاه ، وركبه إلى دار المملكة ومشى في ركابه راجلاً ، فدخلها وجلس للعزاء ، وكانت الرعية تخافه قبل أن يملك لأقدامه وجرأته وحدة كانت فيه ، وكان لا يلتفت إلى أخيه سيف الدين إذا أراد أمراً ، فلما ولي تغيرت أخلاقه ، فصار رفيقاً بالرعية ، محسناً

إليهم ، قريبا منهم ، فكان في ذلك كما روي ، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما عهد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخلافة ، خافه الناس لما عرفوا من شدته وفضاظته ، فقال بعض الصحابة لأبي بكر : ما تقول لربك إذا قدمت عليه وقد استخلفت علينا عمر؟ فقال : أقول له استخلفت عليهم خيرهم ، فلما توفي أبو بكر وولي عمر ، رأى الناس من رفته عليهم ، ورفقه بهم ، وشفقته عليهم ما هو مشهور مدون في الكتب

ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن العادل نور الدين الشهيد بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر الملك شاهي

في رجب من سنة سبع وسبعين وخمسائة ، توفي الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد عماد الدين زنكي رضي الله عنهم بمدينة حلب ، ولم يبلغ عشرين سنة .

ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر تداويا بها ، فقال : لا أفعل حتى استفتي الفقهاء . وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي بمنزلة كبيرة ، وكان يعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه ، فاستفتاه ، فأفتاه بجواز شربها . فقال له : يا علاء الدين ، إن كان الله سبحانه قد قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر؟ قال : لا ، قال : والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمه علي . فلما أيس من نفسه ، أحضر الأمراء كلهم وسائر الأجناد واستحلهم لابن عمه أتاك عز الدين رضي الله عنه ، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه . فقال بعضهم : إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همذان إلى الفرات ، فلو أوصيت بحلب لعماد الدين ابن عمك لكان أحسن ، ثم هو تربية أبيك وزوج أختك ، فقال : إن هذا لم يغب عني ، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ، ومتى

سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين فلا يبقى لأهلنا معه مقام ، وإذا سلمتها الى عز الدين ، أمكنه ان يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله ، فاستحسن الحاضرون قوله وعلّموا صحته ، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه ، ومن أشبه أباه فما ظلم .

فلما توفي ، أرسل دزدار حلب - وهو شاذ بخت - وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يدعونه إلى حلب ليسلموها إليه ، فورد الخبر ومجاهد الدين قايماز قد سار إلى ماردين لهم عرض ، فلقى القاصدين عندها فأخبروه الخبر ، فسار إلى الفران ينتظره ، فسار أتابك مجدا ، فلما وصل المنزلة التي بها مجاهد الدين أقام معه ، وأرسل الى حلب يستحضر الأمراء فحضروا كلهم عنده وجددوا اليمين له فسار حينئذ الى حلب ودخلها وكان يومها مشهودا .

ولما عبر الفرات ، كان تقي الدين عمر - ابن أخي صلاح الدين - بمدينة منبج ، فسار عنها هاربا إلى مدينة حماة ، وثار أهل حماة ونادوا بشعار أتابك ، وكان صلاح الدين بمصر ، فأشار عسكري حلب على عز الدين بقصد دمشق ، وأطمعوه فيها وفي غيرها من البلاد الشامية ، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي ، فلم يفعل وقال : بيننا يمين فلا نغدر به ، وأقام بحلب عدة شهور ، ثم سار منها الى الرقة فأقام بها .

وجاءته رسل أخيه عماد الدين يطلب ان يسلم إليه حلب ، ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار ، فلم يجبه إلى ذلك ، ولج عماد الدين ، وقال : إن سلمتم إلي حلب ، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين ، فأشار حينئذ الجماعة بتسليمها إليه ، وكان أكثرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فإنه لج في تسليمها إلى عماد الدين ، فلم يمكن أتابك عز الدين مخالفته لتمكنه من الدولة وكثرة عساكره

وبلاده ، فوافقه وهو كاره ، وسلم حلب إلى أخيه وتسلم سنجار وعاد إلى الموصل .

وكان صلاح الدين بمصر وقد أيس من العود إلى الشام ، فلما بلغه أخذ عماد الدين حلب ، برز في يومه عن القاهرة إلى الشام ، فلما سمع أتاك بوصوله إلى الشام ، جمع عساكره وسار عن الموصل خوفا على حلب من صلاح الدين ، فاتفق أن بعض الأمراء الأكابر مال إلى صلاح الدين وعبر الفرات إليه ، فلما رأى أتاك ذلك ، لم يثق بعده إلى أحد من أمرائه ، إذ كان ذلك الأمير وأثقهم في نفسه ، فعاد إلى الموصل .

وعبر صلاح الدين الفرات وملك البلاد الجزرية ، ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها ، فعاد إلى حلب وحصرها ، فسلمها إليه عماد الدين وأخذ سنجار والخابور ونصيبين عوضا عنها . وكان سبب هذا جميعه تسليم حلب إلى عماد الدين ، فإنه كان مضرة محضه .

فصل في سبب قضية القبض على مجاهد الدين قايماز وماتبعه من الوهن (١٢٧)

في جمادى الأولى من سنة تسع وسبعين وخمسائة ، قبض المولى المرحوم أتاك عز الدين رضي الله عنه على مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى ، وهو حينئذ نائبه في بلاده ، واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر في مضرة صاحبه وكان الذي أشار به عز الدين محمود زلف دار ، وشرف الدين أحمد بن أبي الخير - الذي كان أبوه صاحب بلد الغراف - وهما من أكابر الأمراء ، فلما قبضه كان بيده إربل ، وشهرزور ، ودقوقا وجزيرة ابن عمر وكان بها معز الدين بن سيف الدين صغيرا ، والحكم فيها إلى مجاهد الدين ، وله أيضا قلعة العققر ، فحين قبض امتنع زين

الآن ، فلما طال الأمر عليه وأيس من اصلاحه ، سار إليه فحصره بها وضيق عليه ، وعزم على أخذها منه فلما نازله ادركته رقة الوالد فلم يقاتله ، بل نزل عليه من غير قتال إلا شيئاً لا يبالي به المحاصر ، فبقي كذلك إلى رجب ، فلما رأى معز الدين ضعف حاله ونفاد أمواله وتغير رجاله ، خضع وطلب العفو والصفح ، فأجابه إلى ذلك وصالحه على قاعدة استقرت بينهما ، وخرج معز الدين إلى خدمته ، فأحسن إليه وأنعم عليه وأمنه ، وعاتبه على ما يبدو منه ، فاعتذر بأعذار علم المرحوم أنه غير صادق فيها ، إلا انه تغمد اساءته بعفوه ، وزلته بصفحه عنها ، وأقره على بلده وعاد عنه الى الموصل ، فعاد معز الدين إلى حالته الأولى ، فتجاوز عنه واطرحه ، وقال : ما يمنعني عن أخذ بلده والحجر عليه ، إلا الخوف من ظن الملوک ابني فعلت هذا شرها على ما بيده ، وإلا كنت فعلت معه ما يستحقه .

ذكر وفاة المولى السعيد المرحوم عز الدين رضي الله عنه

توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب في السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة بدمشق ، فلما وصل خبر وفاته إلى الموصل ، إلى المولى المرحوم عز الدين رضي الله عنه ، جمع من يرجع إلى رأيه واستشارهم في الذي يفعله ، فأشار عليه أخي مجد الدين أبو السعادات رحمة الله عليه ، بالاسراع في الحركة وقصد البلاد الجزرية فإنها لا مانع لها منه ، فقال مجاهد الدين قايمان : ليس هذا برأي أننا نترك وراءنا مثل عماد الدين صاحب سنجار ، ومعز الدين صاحب الجزيرة ، والملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل ونسیر ، إنما الرأي أننا نراسلهم ونستميلهم ونأخذ رأيهم وننظر ما يقولون فقال أخي : إن كنتم تفعلون ما يشيرون به عليكم ويرونه فاقعدوا ، فإنهم لا يرون الا هذا لأنهم لا يؤثرون

حركتكم ولا قوتكم ، إنما الرأي أن يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم ويستميلهم ، ويبذل لهم اليمين على ما بأيديهم ويعلمهم أنه على الحركة ، فليس فيهم من يمكنه يخالف خوفاً أن يقصد ولايته ، لاسيما إذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام ، فهم لا يشكون أنه يملكها سريعا ، فيحملهم ذلك على موافقته ، ومتى أراد الانسان يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت افعاله ، إنما إذا كانت المصلحة أكثر من المضرة اقدم ، وأن كان العكس احجم ، فظهرت امارات الغيظ على مجاهد الدين ، فسكت أخى لأنه كان هو المخدم للجميع على الحقيقة والحاكم فيهم ، واتبع المرحوم عز الدين - قدس الله روحه - قول مجاهد الدين ، وأقام بالموصل عدة شهور يراسل المذكورين ، فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم حال غير أخيه عماد الدين صاحب سنجار ، فإنهما اتفقا على قواعد استقرت بينهما ، فالى ان انفصل الحال ، وصل الملك العادل أبي بكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك ، وجاءته العساكر من دمشق وحلب وحمص وحماة ، وامتنعت البلاد به .

وسار المرحوم عز الدين عن الموصل الى نصيبين ، وقد ابتدأ به اسهال بنزيف ، فوصل إلى نصيبين واجتمع بها هو وعماد الدين ، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن من شبختان يقصدون الرها ، فأرسل الملك العادل حينئذ يطلب الصلح ، وأن تكون البلاد الجزيرية : الرها ، وحران ، والرقه وما معها بيده على سبيل الاقطاع من المرحوم عز الدين فلم يجبه الى ذلك ، وقوي المرض به بتل موزن واشتد إلى أن عجز عن الحركة ، فعاد الى الموصل في طائفة يسيرة من العسكر ومعه مجاهد الدين وأخى مجد الدين ، وترك سائر العساكر مع أخيه عماد الدين ليفصل الحال ويقرر الصلح مع الملك العادل ، فلما وصل نيسر رأى ضعفا شديدا ، فأحضر أخى كتب وصيته ، ثم سار الى الموصل فوصلها مريضا بالاسهال ، وبقي كذلك إلى أن توفي سابع وعشرين شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، ولم اسمع عن أحد من الناس بمثل

حاله في مرضه ، فإنه كان لا يزال ذا كرا الله تعالى ، حتى إنه كان إذا تحدث مع انسان يقطع حديثه مرارا ويقول : أشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، وأشهد (ان محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله) وأشهد ان الموت حق (وعذاب القبر حق ، وسؤال منكر ونكير حق ، والصراط حق ، والميزان حق) (١٣٠) وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من القبور ويقول لمن يخاطبه : اشهد لي بهذا عند الله تعالى ثم يعود الى حديثه ، وأحضر عنده من يقرأ القرآن ، فلم يزل كذلك الي ان توفي رضي الله عنه . وأصاب الناس من رعاياه كلهم بموته فجبيعة لم يصبهم مثلها ، وأظهروا من الغم والحزن مالا كان يظننه احد ودفن بالمدرسة التي انشأها بباطن الموصل مقابل دار المملكة . وكان عمره (١٣١) . . . وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة اشهر . وكان اسمر ، مليح الوجه ، حسن اللحية ، خفيف العارضين . وحكى لي والدي ، قال : هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه . وكان ربعة انا مشى ، فإذا ركب لم يعله احد .

ذكر شيء من سيرته رحمه الله تعالى

كان رضي الله عنه لين الجانب ، كريم الأخلاق ، كثير الاحسان الى الناس ، يتعهدهم بالذفقات والسؤال عن أحوالهم ، لاسيما من يعلم أن له خدمة متقدمة في دولتهم ، فإنه كان يعظمه ويحترمه ويعلي محله ، فمن ذلك أنه كان في دولته الأمير بهاء الدين علي بن الشكري ، وكان رجلا كبيرا له خدمة سالفة - فكان يببالغ في احترامه إلى حد أنه كان إذا لعب معه بالكرة ، يعطيه من دوابه الخاص ما يركبه ويلعب عليه . ومن ذلك أيضا ، انه لما عاد من حصار الجزيرة العمرية سنة سبع وثمانين ، فلما وصل إلى الموصل أمر أن لا يدخل أحد إلى البلد ، ونزل هو في المغرقة في الكشك الذي

بالميدان ، ونزل الناس متفرقين . وكان في جملة الواصـالين معه ، أخي مجد الدين رحمهما الله تعالى ، وكان ينزل بالقرب منه ، فنصبت خيمة أخي بزاوية الميدان من داخله ولم يدخل الموصل ، فخرجت أنا إليه أبصره ، فركب المرحوم عز الدين رضي الله عنه فرأى الخيمة ، فاستدعى أخي وقال له : أرى خيمتك ههنا ؟ قال: لأنك رسمت أن لا يدخل أحد قال : الا أنت ، فإن والدك اثير الدين له مدة ما رآك ، ولا شك إنه قد اشتاقتك ، فتدخل إليه وتسلم عليه وتساله الدعاء ، ولا تجيء إلينا الى ثلاثة أيام ، فامتنع من ذلك ، وقال : أنا أبصره وأعود إلى الخدمة ، فلم يرخص له في ذلك ، وألزمه بقصد والده والاقامة عنده ، فأنظر إلى هذا الفرق والطف الذي لا يفعله الانسان الا مع أهله لا سيما الملوك .

وكان رحمه الله تعالى حيبا كثير الحياء ، كما قيل ، أشد حياء من العذراء في خدرها ، لم يحدث أحدا قط إلا وهو مطرق ، فمن حيائه أنه أمر طائفة من عسكره بالتجهيز للغزاة ، وكان فيهم مملوك لم يكن له محل ، إنما هو بمفرده ، فحضر في خدمته وقال : لي مهم أريد أقوله ، فأذن له في القول ، فقال : بلغني انني في جملة العسكر المسير إلى الغزاة ، وعجب من مولانا كيف يسمح بمثلي ويرسلني ويبعدني عن خدمته ، ولا شك أن المولى لا يعرف محلي ، وإلا فما كان أمر بذلك . فقال له : صدقت ، مثلك لا ينبغي أن يفارقنا مع علو محلك وارتفاع قدرك فلما خرج من عنده أظهر الانكار ، وقال : قد صار مثل هذا المدير المنحوس يقول لي هذا القول ، ومن هو وما محله وقد سيرنا في هذه الغزاة جماعة من أكابر الأمراء ، أليس له بهم أسوة . فقال له بعض الحاضرين : لم لا أمر المولى بتأنيبه واقامته من خدمته ، وكيف استمع حديثه ؟ فقال : استحييت منه ، فقالوا: أفلا تؤدبه وتعرفه نذبه ؟ فقال : قد أحسن الظن بنفسه فلا نعاقبه عليه .

وكان رحمه الله تعالى رفيقا رفيقا رقيق القلب ، كثير الرحمة لرعيته ، حكى عنه أخي مجد الدين رحمه الله تعالى ، انه ركب يوما

فقال له ولن معه : إنني هذه الليلة ما نمت الى سحر ، فقالوا له : وما سبب ذلك ؟ قال : كنت سمعت أن ابن فلان مريض - وذكر انسانا بائعا ، بالموصل - فلما كان الليلة سمعت صوت مآتم ، فظننت أنه توفي فضاق صدري - وكان بلغني بأنه ليس لأبويه غيره - فشق ذلك علي ، وقمت من الفراش الى أطراف السطح ، لعلي أعلم من هو الميت ، فطال الأمر الى ثلث الليل الأخير ، فقلت : لم أعذب نفسي ، فأرسلت خادما وفتح أبواب الدار وأرسل من الأجناد من يستعلم لنا من الميت ، فعاد وذكر انه شخص لم أعرفه ، فحينئذ نمت ، فاعجب لهذه الشفقة والرقّة على رجل من الرعية ليست له صحبة ولا خدمة .

قال: وكان رحمة الله عليه نبينا خيرا ، قد ابتنى في داره مسجدا فيخرج اليه في الليل ويصلي فيه أوراذا كانت له ، ولبس فرجية كان قد اخذها من الشيخ عمر الذسائي الصوفي ويصلي بها ، وكان قبند حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر الذسائي المذكور ، وكان من الصالحين.

وكان رضي الله عنه يقوي يد من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر. كان بالموصل رجل من الفقراء الاخيار من باجبتري (١٣٢) اسمه حرب ، فكان كثيرا ما يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، فاجتاز يوما على الجسر فلقي دوابا تحمل الخمر لانسان هو اقرب الناس الى المرحوم عز الدين واخصهم به ، فالقاه الفقير عن الدواب وارقة بعد ان ضرب ، فبلغ الخبر اليه ، فأحضر الفقير وامره بازالة جميع ما يراه من المنكرات واطلق يده ، وانكر على ذلك الأمير وامره باحضار غلمانة الذين ضربوا الفقير ، فبعد الجهد ان تركهم.

وكان رحمه الله تعالى يأمر بالانتصاف من اقرب الناس اليه واعظمهم منزلة عنده ، ويقوي يد صاحب الحق ، فمن ذلك انه كان بالموصل انسان من اعيان الدولة ، وهو مع ذلك يتولى امر الخاتون والدة المرحوم رضي الله عنه ، وله بها اعظم جاه واعلى منزلة ، ولها

به اتم عناية واكثر حماية لتقديم خدمته ، وكان له قرية تجاور قرية الانسان عجمي مقيم بالموصل ، فأخذ شيئاً من ارض قرية العجمي ، وطال النزاع بينهما ، ففي بعض السنين جاء الى الموصل واعظ ، فأحضره المرحوم عز الدين بسداره ليعظ عنده ، وامران لا يحجب احد ، فاجتمع عالم كثير ، فتكلم ذلك الواعظ ، فقام ذلك العجمي وصاح واستغاث وببده رقعة يشكو بها حاله ، فأمر السعيد عز الدين بالجلوس الى ان يفرغ المجلس ، فلما جالس ، واحضر القاضي وامره بالحكم بمقتضى الشريعة المطهرة فحكم بينهما ، فظهر الحق للعجمي ، فأمر الحاكم بالاسجال له والاثبات لحقه والاشهاد عليه به ، وارسل معه اوصل حقه اليه واسخط والدته في اتباع الحق.

وكان رضي الله عنه حليماً ، فمن حامه ، ان انساناً فقيراً من اهل الموصل من اصحاب الزوايا بظاهر البلد ، لما وصل صلاح الدين يوسف بن ايوب الموصل محاصراً بها (١٣٣) اجتمع به واكثر التردد اليه واخذ صلته ، وقال: ما تحتمل الملوك بغضة الى احد ، فلما عاد صلاح الدين ، احضر المرحوم عز الدين هذا الفقير وانكر عليه ، وامر بتخريب زاويته ، ثم احضره بعد أيام واعتذر اليه واستحله ، واعطاه مائة دينار وامره بتجديد زاويته ، وقال: ان أردت شيئاً آخر

نفسه
لك ، فعمر غير زاويته وأكبر منها وأحسن ، وغرم عليها جملة وافرة ، وكالما فرغ بالنفقة أنفذ له شيئاً آخر الى أن فرغت ، وكان بعد ذلك يتردد إليه ويزوره ويواصله بالعطاء ، وكان يتردد إلى الصالحين ويزورهم ويصلهم ،

قال : وهو الذي ابنتى المدرسة الغربية بباب دار المملكة ، وهي مدرسة حسنة ، جعلها للفرقيين الحنفية والشافعية ، وقرر للفقهاء ماليس بمدرسة أخرى من الفواكه والحلواء ، والدعوات في المواسم والاعياد والشيرج للوقود والفحم وغير ذلك ، وقرر في وقفها من

الصدقات كل أسبوع وفي الأيام الشريفة والليالي المباركة شيئا كثيرا .

وهو الذي فتح الباب الغربي في الموصل - وهو بين باب كندة وباب العراق - ولم يكن هناك باب فجاء حسنا ، وانتفع به أهل ذلك الصقع .

في ذكر ملك ولده السعيد نور الدين بن عز الدين

ابن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي

قد ذكرنا عود المرحوم - قدس الله روحه - من تل موزن مريضا وأنه كتب وصيته بدينسر ، وكان في جملة الوصية أنه أوصى بالملك لولده المولى نور الدين أرسلان شاه ، قدس الله روحه ، وأوصى بغير ذلك ، وكان الوصي فيها مجاهد الدين قايماز ، رحمه الله تعالى .

فلما وصل الى الموصل وهو مريض ، أرسل إليه أخوه شرف الدين بن قطب الدين مودود يطلب أن يجعل الملك له ، وأرسلت أيضا والدته الخاتون في المعنى وبالسغت ، لأن شرف الدين أيضا ولدها ، وجمعا لهما جموعا وجندا ، وأظهر شرف الدين أن أحدا لا يقدر يملك الموصل معه ، وحدث نفسه بشيء وظنه حقا (يريدون ليطفئوا نور الله بسا فواهم والله متمم نوره ولو كره الكافرون (١٤٣)) وقال شرف الدين : ان ملكني أخى بعده ، والا أثرت فتنة في البلد وأخذته قهرا فان عجزت سرت الى الملك العادل بن ايوب ، وأرعد وأبرق ، وكان عمر المولى المرحوم نور الدين - قدس الله روحه - حينئذ نحو عشرين سنة ، وهو

ينظر إلى عمه ويظنه يفعل ما يريد وكان الملك العادل سيف الدين بن أيوب حينئذ قد نزل نصيبين ، فلهذا قوي جنان شرف الدين ظنا منه أن أخاه يملكه إذ هو كبير (البيت) (١٣٥)) ليقوم برد العادل عن نصيبين ، فخاب ظنه فقال عز الدين لمجاهد الدين ليحلف الناس لولده نور الدين ، وقال : أخاف أن أموت وليس لكم ملك مستقل بالملك ، والعادل في البلاد ، فيحدث ضرر لا يمكنكم تلافيه ، فلم يقدم مجاهد الدين على ذلك خوف الفتنة ، وكان يحب السلامة ، فأرسل إلى شرف الدين يأمره ويشير عليه بأن يحلف لولد أخيه ووعده الزيادة (والاقطاع) فلم يجب إلى ذلك وتهدد وقال ، فتوقف مجاهد الدين في تحليف الناس ، ثم إن المرحوم نور الدين ، رضي الله عنه ، أرسل إلى أخي مجد الدين - رحمه الله - مع خادم لوالده ، وهو أمين الدين يمن ، يطلب منه أن يشير على مجاهد الدين بتحليف الناس له وترك التواني فيه ، ووعده الزيادة والاقطاع وتمليك القرايا ، وأرسل إليه معه خاتما ، فورد الخاتم ، وقال : خاتم المولى إنما يعطى على بلاد ، وأما هذا الأمر اليسير فهو أحقر من أن يؤخذ عليه خاتمه - وكان أخي هو الذي يصدر عن رأيه على ما شاهده الناس - وأما مارسمت به فأنا مشدود الوسط فيه ولا يشكرني المولى على هذا ، فإنني أفعله خدمة لوالدك الذي أنا في خدمته إذ هو هكذا يريد ، ولو أراد غيره لاتبعته ولم يبذمني الا ما يوافق غرضه والمصلحة له ولدولته ، وأنا أشكر الله تعالى حيث ارادة والدك موافقة لارادتك فاذا خدمت خدمة وافقت الغرضين ، وأماما وعدت به من انعام وزيادة مرسوم ، فليست لي رغبة في شيء من هذا ، فلي من نعمتكم ما يفضل عني ، ثم ركب من وقته واجتمع بمجاهد الدين بالقلعة فرأه مفكرا ، فشكا اليه مجاهد الدين وقال : هذا شرف الدين يريد الفتنة والمولى عز الدين يريد ولده ، والعادل بنصيبين ، والفتنة قد رفعت رأسها ، فبينما هما في الحديث ، واذا قد جاء قاصد من المرحوم عز الدين يقول لمجاهد الدين : قد ضجرت مما اقول لك لتحلف الناس لولدي وأنت تهمل الأمر والعدو بالقرب منكم وانتم بغير سلطان ، وأنا فما أظن أنني

أعيش يوماً آخر فما تنتظر؟ فتضجر مجاهد الدين، وأعاد ما كان يقول لأخي من الشكوى فقال له أخي: أنت تفعل هذا جميعه بذفسك وبالدولة، معك ولو شئت لم يكن منه شيء، والرأي أن تأمر باحضار الأمراء، وأرباب المناصب، والمقدمين، وأعيان البلد وتحلفهم لولده كما يريد، فاذا فعلت هذا، حينئذ يندم شرف الدين وما عسى أن يفعل، وإن بدا منه ما يخالف هذا، أخذناه قهراً ووكلنا به، ومهما الأمر على هذه الحال بغير يمين لنور الدين، ولا يركب ليراه الناس، ويعلموا أن لهم سلطاناً، لانزال مع شرف الدين مصدعين فأمر مجاهد الدين باستدعاء الجماعة الذين ذكرهم أخي فحضروا، وحلفوا بالذسخ التي كتبها أخي - رحمه الله - لهم، وحلف مشايخ المحال وعرفاء الاسواق فسمع من جمعهم شرف الدين فخافوا وتفرقوا عنه، فأرسل إلى مجاهد الدين يعاتبه حيث حلف الناس قبله، وقال: أردت أن أخدم المولى نور الدين وأتولى القيام بأمره، ثم ان مجاهد الدين ركب السعيد نور الدين من الغد في موكب والده، وحمل السنجق على رأسه، ومشى مجاهد الدين في ركابه راجلاً قد حمل الغاشية، فلم يلبث المرحوم عز الدين بعده غير يومين حتى توفي رضي الله عنه وأرضاه، واستقر السعيد نور الدين - قدس الله روحه - ولم يتغير بالناس حال، ورعى هذه الخدمة لأخي رحمه الله تعالى، فكان عنده واحد دولته، والمرجع إلى قوله ورأيه، ولم يزل كذلك إلى أن فرق الموت بينهما رضي الله عنهما.

ذكره وفاة عماد الدين زنكي بن قطب الدين

مودود .

وفي (المحرم) (١٣٦) من سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، توفي الملك العادل عماد الدين زنكي بن السعيد أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد عماد الدين زنكي بن أفسنقر رضي الله عنهم ، صاحب سنجار ونصيبين والخابور وقد تقدم كيف ملكها ، وكان عمره ٠٠٠ (١٣٧) وولي بعده ابنه قطب الدين محمد ، وتولى تدبير دولته مملوك والده ، مجاهد الدين يرزقش ، وكان ديناً خيراً ، إلا أنه كان شديد التعصب على مذهب الشافعي رضي الله عنه ، يكثر ذم الفقهاء الشافعية ويقع فيهم ، فمن تعصبه أنه بنى مدرسة للحنيفة بسنجان ، وشرط أن يكون النظر في وقوفها إلى الحنفيين من أولاده دون الشافعيين وهذا غاية التعصب .

ذكر ملك السعيد نور الدين مدينة نصيبين

في (جمادى الأولى) (١٣٨) من سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، سار المولى السعيد نور الدين ارسلان شاه إلى مدينة نصيبين - وهي لقطب الدين ابن عمه عماد الدين - فملكها ، وسبب ذلك أن عمه عماد الدين زنكي ، رحمه الله ، وكان له نصيبين ، فتناول نوابه بها ، واستولوا على عدة قرايا من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل ، وهي مجاور ولاية نصيبين .

فبلغ الخبر إلى مجاهد الدين قايماز ، فلم يعلم مخدومة نور الدين الخبر ، لما يعلم من علو همته وأبائه فضاف أنه ربما حمله الغيظ على أن يبدو منه ما يوجب اختلافاً بينه وبين عمه ، فأرسل

من عنده رسولا الى عماد الدين في المعنى وقبح هذا العمل ، وقال:
لاشك أن الذواب قد فعلوا بغير أمره ، فأعاد الجواب : أنهم لم
يفعلوا (الا) ما أمرتهم به ، وهذه القرايا هي من أعمال
نصيبين ، ولم يعدها ، فرد مجاهد الدين برسالة ثانية يقول
له : ماتساوي هذه وأضعافها أن تخرج ولدك نور الدين عن
يدك ، فانه الى الآن ماخالفك في شيء ، وما أعلمته بهذه الحال لعلمي
أنه لا يصبر عليها ، وليس هو مثل والده ، إن علم يخرج الأمر عن
يدي ولا أقدر أمنعه ، فلم يلتفت عماد الدين فحينئذ أنهى مجاهد
الدين الحال إلى السعيد نور الدين ، فغضب لذلك وأنكر حيث لم
يعلمه أولا وقال : وهذا هو الذي أطمعه ، ثم أحضر أميرا من
مشايخ دولتهم ، يقال له بهاء الدين علي بن الشكري ممن خدم
الشهيد رضي الله عنه ، وأرسله إلى عماد الدين يقول : قد بلغني كذا
وكذا ، وأن مجاهد الدين راسلك مرتين ولم ترد ملكنا إلينا ، فلو
أنك أرسلت تطلب جميع الولاية وغيرها لكان أحب الأشياء
الي ، وأما بأن تأخذ مني قرية واحدة مراغمة لي واطراحا لجانبي
فلا أصبر على هذا ، فتأمر بإعادتها قولاً واحداً

فمضى الرسول فأدى الرسالة وعماد الدين قد مرض ، فاغتاظ
من ذلك وامتنع من الاجابة ، فقال الرسول من عنده نصحا
له ، وأشار عليه بالمصلحة ، لأنه كان عند جميع البيت الشريف
الاتابكي مقبولا ، فلم يصغ الى قوله ، وقال ماجرت العادة أن تقوله
المرضي ، فعاد الرسول الى الموصل وأخبر مجاهد الدين جلية
الحال ، فأمره أن يكتفم ما يغيب نور الدين ، فلم يفعل وحكى
للمرحوم نور الدين جلية الحال ، فغضب وعزم على المسير الى
نصيبين وملكها ، ومجاهد الدين يمنعه فتوفي عماد الدين والحال
على ذلك فجلس للعزاء .

ثم أرسل إلى قطب الدين محمد بن عماد الدين في المعنى ، فلزم
ما كان والده عليه ، فسار حينئذ نور الدين عن الموصل إلى
نصيبين ، فلما سمع قطب الدين سار عن سنجار في عساكره فسبقه

اليها ونزل بظاھرھا ، وعزم على منعه من النزول علیھا ومن محاصرتها ، فلما وصل نور الدين ، لم یعبأ بقطب الدين وتقدم إلى البلد ، وكان بینه وبين قطب الدين نهر ، فلما قرب نور الدين (من) النهر ، عبر الأمير فخر الدين عبد الله بن عیسی المهراني النهر - وهو من أكبر الأمراء النورية - وقاتل من بازائه ، فلم یثبتوا له ، وعبر العسكر النوري وقد تمت الهزيمة على قطب الدين ولم یقاتله غیر فخر الدين عبد الله ، واحتمی هو ونائبه مجاهد الدين یرنقش وغیرهما بقلعة نصیبین ، وأدركهم اللیل فخرجوا منها هاربین الى نیار بكر ، ثم منها الى حران .

وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حران وغیرها - وكان بدمشق - وبذلوا له الأموال الكثيرة لینجدهم ویعيد الیهم نصیبین ، وأقام أتابك نور الدين بمدينة نصیبین ، فمرض كافة أمراءه وأكثر عساكره فعادوا إلى الموصل وتوفي أكثرهم ، وأقام هو بنصیبین وقد تضعع العسكر بعود الأمراء وكثرة الأمراض . ووصل الملك العادل إلى نیار الجزرية ، فحينئذ فارق السعيد نور الدين نصیبین وعاد إلى الموصل لاستیلاء المرض على كافة العسكر وعودهم ، فلما فارقها تسلمها قطب الدين بن عماد الدين .

وتوفي جماعة من الأمراء المواصله ، منهم عز الدين جورديك وفخر الدين عبد الله بن عیسی ، وشمس الدين عبد الله بن ابراهيم المهدي رانیاں وظهير الدين (یولق) (١٣٩) بن بلذكري الدكزي ، ومجاهد الدين قايمآز ، وجمال الدين محاسن وغير ذلك من ذكرنا ، وأما من هو أقل من هذه الطبقة فلانطول الكتاب بذكرهم فهم كثير .

ولما عاد المرحوم نور الدين إلى الموصل ، قصد الملك العادل بن أيوب قلعة ماربین فحصرها واستولى على ربضها ، وحصر القلعة

وضيق على من بها ولم يبق غير ملكها ، فأنقذها الله تعالى على يد نور الدين على ما ذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة مجاهد الدين قايمان رحمه الله تعالى

في (ربيع الأول) (١٤٠) من سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، توفي مجاهد الدين قايمان رحمه الله تعالى بقلعة الموصل ، وهو متوليها والحاكم في الدولة الأتابكية النورية ، وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة من سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، فأعيد الى ولايتها بعد الافراج عنه على ما ذكرناه ، وبقي الى الآن . وكان اصله من القرادي من أعمال شبختان واخذ هو منها طفلا ، وكان عاقلا ، بينا ، خيرا ، فاضلا ، يعلم الفقه على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه ، ويحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئا كثيرا ، الى غير ذلك من المعارف الحسنة ، وكان يكثر الصوم ، وكان يصوم رجب وشعبان ورمضان ، وشيئا من شوال ، وعشر ذي الحجة ، وعشر المحرم ، وكل اثنين وخميس ، والأيام البيض من كل شهر الى غير ذلك ، وكان له ورد يصليه كل ليلة ويكثر الصدقة .

وبني عدة جوامع منها الذي بظاهر الموصل ، وبني عدة خانقاهات ، منها التي بالموصل ، ومدارس ، وقناطر على الأنهار الى غير ذلك من المصالح ، ومناقبه كثيرة فلا نطول بذكرها لئلا نخرج عن ما قصدناه من الاختصار .

ذكر ما فعله المرحوم نور الدين عفا الله بماردين

في سنة خمس وتسعين وخمسمائة في رمضان ، سار الملك السعيد نور الدين - قدس الله روحه - إلى ماردين لازاحة العسكر العادلي عنها وابقائها على صاحبها حسام الدين ، وكان سبب ذلك أن الملك العادل حصرها في العام الماضي على ما ذكرناه ، فبقي محاصرا لها أحد عشر شهرا ، فعدمت الأقوات وغيرها بها ، وأصاب أجنادها مرض عم أكثرهم ، فكان أحدهم لا يطيق القيام ، ولم يبق غير الاستيلاء عليها ، فبينما الملك العادل يحاصرها ، إذ توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الديار المصرية ، وكان عسكره مع عمه الملك العادل على ماردين ، فلما توفي ، ملك بعده أخوه الملك الأفضل علي بن صلاح الدين ، وكان بينه وبين عمه نفرة قد ذكرناها في المستقصى .

فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقتة والعود إلى مصر فعادوا ، فقل جمعته وعسكره ، إلا أن أهل ماردين قد ضعف من بها واستكانوا ، ولم يدفعهم قلة العسكر عليهم ، لأن الراجل كان كثيرا ويكفي في حصرهم .

ثم ان الملك الأفضل أرسل الى السعيد نور الدين يطلب منه الموافقة على الملك العادل ، فأجاب إلى ذلك ، وخرج الأفضل من مصر عازما على حصر دمشق واستعادتها من عمه ، لأنه كان أخذها منه ، فلما سمع الملك العادل الخبر سار عن ماردين جريدة في نفر يسير إلى دمشق ليحفظها من الأفضل ، وترك ابنه الكامل محمد مع العسكر على ماردين يحاصرونها .

وبرز المرحوم نور الدين عن الموصل وسار إلى ماردين وأخبر شعبان ووافقه قطب الدين ابن عمه عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين ، ووافقه أيضا معز الدين ابن عمه سيف الدين - وهو

بشرط أن يعطي خبزاً يرضيه ، وحضر سدقر المشطوب ، وحلف واشترط أن يرضى وحضر أيبك الأفطس رحمه الله واشترط رضاه ، وحضر حسام الدين بشارة ، وحلف وكان مقدما على هؤلاء ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم بل حلف هؤلاء للتقرير ، ونسخة اليمين المحلوف بها مضمونها : إني من وقتي هذا صفت نيتي ، وأخلصت طوبتي ، للملك الناصر مدة حياته ، وإني لأزال باذلا جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي ، وسيفي ورجالي ، ممتثلا أمره واقفا عند مرضيه ، ثم من بعده لولده الأفضل علي ووريثه ، وواله إنني في طاعته وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، وأمتثل أمره ونهيه وباطني وظاهري في ذلك سواء ، والله على ما أقول وكيل .

ذكر وفاته رحمه الله وقدس روحه

ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، وفي الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ، ووقع في أوائل الأمر في أول الليل ، وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزكي ، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت ، وحضر بيننا الملك الأفضل ، وأمر أن نبيت عنده ، فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأيا فإن الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف أن لا تنزل فيقع الصوت في البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضا ، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضر الشيخ أبي جعفر أمام الكلاسة ، وهو رجل صالح ليبيت بالقلعة ، حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء ، وذكره الشهادة ، وذكره الله تعالى ، ففعل ذلك ، ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكره الله تعالى ، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لا يكاد يفوق إلا في أحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى (هو